

## فاروق مردم بك\*

### إيلان هاليفي: يهودي فلسطيني ومواطن من العالم

المفكر الفرنسي الكبير فيليكس غواتاري، بعد موته في سنة ١٩٩٣، حين اعتبره "أممياً من طراز فريد" يجب أن يعترف بفضل جميع الذين "يفكرون من منظور كون العالم كلاً متكاملًا" في زمن طغت فيه العصبية القبلية والطائفية الضيقة. ولم تكن أممية إيلان هذه مجرد خيار سياسي أو أيديولوجي، بل لحمة حياته وسداها كما يتبين من سيرته التي لا تكاد تُصدّق في بعض وقائعها - والتي كان هو نفسه يرويها على غير حقيقتها حتى إلى أصدقائه المقربين، محرّفاً حيناً نسبه واسمه، ومخفياً حيناً آخر ما يفخر به غيره من وعي سياسي مبكر وموهبة أدبية وفنية نادرة.<sup>١</sup> ولد إيلان هاليفي في ١٢ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٤٣ في مدينة ليون، وكانت آنذاك ترزح تحت احتلال القوات الألمانية النازية. وُلد سرّاً، بلا قابلية، في مكتب للبريد كانت المقاومة الوطنية الفرنسية تستخدمه مخبأً للسلاح. ولم تمضِ بضعة أسابيع على ولادته حتى اعتُقل المسؤول عن المكتب، ويدعى أوجين دوني، ومعه ابنه هنري، وأعدما رمياً بالرصاص. وقد أطلقت بلدية ليون

الكثير عن إيلان هاليفي غداة **قيل** وفاته في ١٠ تموز / يوليو ٢٠١٣ في مصح في ضاحية كليشي بالقرب من باريس. رثاه أصدقاؤه الفلسطينيون فأثنوا عليه مناضلاً صلباً لم يكتفِ بنصرة قضيتهم، وهو اليهودي من أم وأب يهوديين، بل انضمّ إلى صفوفهم واختار أن يكون فلسطينياً. ونعته الصحافة الفرنسية وغيرها في مقالات روت جانباً من سيرته، لكنها تفتقر في أغلبيتها إلى الدقة، وأحياناً إلى الإنصاف. ولم يكن من المستغرب أن تشتمه بعض المواقع الصهيونية في الإنترنت ميتاً كما كانت تشتمه حياً، فرمته على عاداتها بعقدة كره الذات، واتهمته بخيانة شعبه، وبالعداء للسامية.

والواقع أن الوصف الوحيد الذي يليق بإيلان هو الذي كان قد أطلقه على صديقه

\* كاتب وباحث سوري - مدير المنشورات العربية في دار النشر الفرنسية Acte Sud، ومدير المنشورات الصادرة بالفرنسية عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

فترة قصيرة مهمة سكرتير التحرير. وفي هذا الصدد يجدر ذكر أنه كان من القلائل الذين اجتمعوا إلى مالكولم إكس في نيسان / أبريل ١٩٦٤ حين مرّ بباريس عائداً إلى الولايات المتحدة بعد أدائه فريضة الحج.

وبلغ من اندماجه حتى التماهي في وسط الأميركيين السود في باريس أنه كتب رواية باللغة الإنجليزية المحكيّة في هارلم بعنوان "العبور"، نُشرت في نيويورك في سنة ١٩٦٤، ولم يكن قد زار الولايات المتحدة بعد، ولا مرة واحدة. ومما كُتب عن روايته هذه عند صدورها مقالة في جريدة "واشنطن بوست" جاء فيها: "إن الرواية الجديدة الأعمق تأثيراً عن المسألة العنصرية ألّفها بأعجوبة من أعاجيب التماهي شاب فرنسي أبيض يعيش بعيداً كل البعد عن مسرح جرائمنا." وقد ترجم إيلان بنفسه روايته إلى الفرنسية باسم مستعار، هو جورج ليفين، ونشرها في دار سوي في سنة ١٩٦٥.

تزوج إيلان في أثناء ذلك بفتاة خلاسية من جزيرة المارتينيك كان يحبها منذ أعوام الدراسة الثانوية، وأنجبا ولداً سمّياه لوران (ورث عن أبيه ولعه بالموسيقى وتوفي في سنة ٢٠٠٢)، وجاب معها بعض بلاد إفريقيا السوداء والمغرب العربي. ويبدو أنه فكّر وهو في مالي، حيث عمل محرراً في إحدى الإذاعات، في اعتناق الإسلام تضامناً مع المسلمين ضد العنصرية، إلا إن كبير الكتّاب الماليين، أمادو هامباتي با، نهاه عن ذلك بقوله: "إن سبل المعرفة متعددة فلا حاجة بك إلى سلوك طريق فرعية ليست طريقك الأصلية!" وفي الجزائر، أطلع على القضية الفلسطينية بفضل بعض المدرسين السوريين والمصريين فتحصّس لها وقرر في سنة ١٩٦٦ الذهاب إلى إسرائيل للدفاع عن الحقوق الفلسطينية المغتصبة مع غيره من

بعد التحرير اسمهما على شارع من شوارع المدينة.<sup>٢</sup>

كان اسم أبيه هنري ليفين، وكان قد ولد في بولونيا من أبوين يهوديين روسيين، ثم هاجرت أسرته إلى فرنسا. أمّا أمّه فكانت يهودية من إستانبول. وبعد وفاة زوجها في سنة ١٩٥٢، تزوجت أحد أصدقائه، واسمه إميل ألبير، فتبنّى أولادها الأربعة، واشتهروا بكنيتهم الجديدة: ألبير.

بدأ إيلان حياته الأدبية شاعراً، فقد نشر في سنة ١٩٦٠، وهو بعد في السابعة عشرة من عمره، قصيدة عنوانها "المواقيت"، تقع في أكثر من أربعين صفحة، وذلك في مجلة *Ecrire* التي كانت تصدرها دار سوي (Editions du Seuil) المشهورة، ويشرف عليها الشاعر جان كيرول.<sup>٣</sup> ولا بدّ لقارئ القصيدة اليوم من أن يلمح فيها تأثير الشاعر المارتينيكي الكبير إيمي سيزير، صاحب ديوان "دفتر عودة إلى الوطن الأم" ومقالة "خطاب عن الاستعمار" اللذين كان إيلان قد أطلع عليهما في سنّ مبكرة.

تعلم اللغة الإنجليزية من دون معلم في أثناء ممارسته هوايته المفضلة، وهي الضرب على آلات الإيقاع في نادٍ من أندية الجاز في الحي اللاتيني في باريس. وتعرّف في النادي إلى بعض كبار الموسيقيين الأميركيين السود، منهم بدّ باول وإيريك دولفي. والتقى بعد ذلك شخصيات زنجية أخرى كانت تقيم في باريس، مثل إيلين رايت، أرملة ريتشارد رايت، والكاتبين شيلستر هايمز وجيمس بلدوين. وقدّمته إيلين رايت إلى جان بول سارتر، فنشر له في مجلته "الأزمة الحديثة" (*Les Temps modernes*)، مقالاتين عن أوضاع الزوج في الولايات المتحدة، ألحقهما إيلان بمقالات أخرى في مجلة "الحضور الإفريقي" (*Présence africaine*)، التي تولى فيها خلال

التي تصدر باللغة الفرنسية،<sup>٨</sup> منذ صدورها حتى آخر عدد من أعدادها. غير أن إيلان لم ينشط في الميدان الإعلامي الخارجي فحسب، إذ كلفه ياسر عرفات [أبو عمار] وخليل الوزير [أبو جهاد] في الثمانينيات، بعد التحاقه بحركة "فتح"، بمهمات سياسية ودبلوماسية دقيقة، وعيَّنه أبو عمار في سنة ١٩٨٣ ممثلاً لمنظمة التحرير الفلسطينية في لجنة الأمم المتحدة الخاصة بحقوق الإنسان، ثم في الأمانة الاشتراكية خلفاً للدكتور عصام السرطاوي الذي اغتالته مجموعة أبو نضال في لشبونة. وما إن اندلعت الانتفاضة في أواخر سنة ١٩٨٧ حتى كان أحد أبرز سفرائها إلى العالم، كاتباً ومحاضراً، ومن أول الذين أدركوا ما تعنيه من تحوّل استراتيجي، فعكف مع رفاق من "فتح"، وبطلب من القيادة، على إعداد ملفات توثيقية وتحليلية عن المسائل الجوهرية في الصراع العربي - الإسرائيلي، وخصوصاً موضوع اللاجئين وحق العودة، الأمر الذي هيّأه لحضور مؤتمر مدريد في سنة ١٩٩١، والمشاركة في مفاوضات واشنطن التي تبعته.

وفي إثر توقيع اتفاق أوسلو وقيام السلطة الوطنية الفلسطينية، اعتزم إيلان الإقامة في فلسطين، لكن السلطات الإسرائيلية منعت من دخول البلد إلى أن تدخلت الأمانة الاشتراكية وفرضت مشاركته ممثلاً لمنظمة التحرير في مؤتمرها الذي عقدته في القدس في سنة ١٩٩٥، فعاش عشرة أعوام في القدس ورام الله، وعمل مستشاراً للشؤون الخارجية، وعيّن نائباً لوزير الخارجية في سنة ٢٠٠٣، وانتُخب عضواً في المجلس الثوري لحركة "فتح". وفي غضون ذلك، لم يكف عن

اليهود المعادين للصهيونية. وهناك، أقام في كيبوتس غان شمويل تحت اسم إيلان هاليفي، وتعلّم العبرية، وتزوج مرة ثانية، وولدت ابنته ياسمين وابنه نمرود. وكان قد انتمى فور وصوله إلى جماعة ماتسبين (البوصلة) اليسارية، لكنه ما لبث أن تركها مع بعض أصدقائه لتأسيس خلية أكثر جذرية باسم معفاك (النضال). وحين اعتُقل اثنان من أعضاء الخلية بتهمة الاتصال بسوريين طُرد من الكيبوتس.

عمل إيلان في إسرائيل مراسلاً لجريدة "ليببراسيون" الفرنسية، وكان في إحدى زيارته لباريس، في سنة ١٩٧٥، قد تعرّف إلى الباحثة في علم الاجتماع والمناضلة اليسارية كاترين ليفي، واتفقا على أن تقيم معه في إسرائيل، إلا أنها اعتُقلت فور وصولها وحوكمت بتهمة الاعتداء على أمن الدولة وطُردت، فغادر إيلان إسرائيل واستقر معها من جديد في فرنسا حيث أنجبا ولديهما ماريان وإيمانويل.

وفي باريس، تعرف إيلان بفضل كاترين إلى الفيلسوفين الكبيرين جيل دولوز وفيليكس غواتاري اللذين ساعدها على إصدار نشرة معادية للصهيونية بعنوان "أخبار الداخل". وشارك منذ عودته بكفاءة متميزة في النشاط الإعلامي الفلسطيني، ونشر كتابين مهمين، أولهما في سنة ١٩٧٨ بعنوان "تحت إسرائيل، فلسطين"<sup>٩</sup> عن القرى الفلسطينية المدمرة، وثانيهما في سنة ١٩٨١، بعنوان "المسألة اليهودية: القبيلة، القانون، المكان"<sup>١٠</sup>، وهو بحق من أعمق ما كُتب حتى الآن في موضوع الهوية اليهودية وفي دحض الأيديولوجيا الصهيونية، وقد تُرجم الكتاب إلى اللغتين الإنجليزية والألمانية. وساهم أيضاً بصورة منتظمة في "مجلة الدراسات الفلسطينية"



الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات متوسطاً هاليفي وابنته مريم أوبرت

إن هذه النبذة عن إيلان هاليفي لا تكفي للتعريف به، ولا تفويه حقه مناضلاً وكتاباً وإنساناً، فلكل صديق من أصدقائه ما يرويّه عنه في مرحلة من مراحل حياته، مضيفاً سمة جديدة إلى سماته التي يعرفها أو لا يعرفها غيره. غير أن رواياتهم كلها تتقاطع عندما يتذكرون ما كان يتمتع به من نكاه حاد وثقافة موسوعية وحبّ للحياة ووفاء للقضايا الإنسانية الكبرى التي نذر لها نفسه منذ صباه. كان حين يُسأل عن هويته يجيب مازحاً أنه "يهودي مئة في المئة وعربي مئة في المئة"، لكنه في واقع الأمر لم يكن هذا ولا ذلك. كان العالم، كل العالم، وطنه، وكان يحلم بمواطنة تشمل العالم كله وتنبذ أشكال التمييز كلها بين البشر. ولذلك يجب القول أولاً وأخيراً إن إيلان لم يقرر أن يكون فلسطينياً إلا لإيمانه بأن القضية الفلسطينية جزء لا يتجزأ من قضية التحرر الإنساني. ■

الكتابة في "مجلة الدراسات الفلسطينية" وغيرها من الدوريات، وعن المشاركة في المؤتمرات والندوات، ونشر في سنة ٢٠٠٣ كتيباً بعنوان "في مواجهة الحرب، رسالة من رام الله" ندد فيه بالاحتلال الأميركي للعراق، ودعا إلى عولمة بديلة. وصدّرت بعد ذلك بعامين روايته "ذهاباً وإياباً" التي تجمع بين السيرة الذاتية والشهادة التاريخية والقصّ الروائي. وكان قد تعرّف في رام الله إلى ناشطة ألمانية تعمل في إطار مؤسسة للتعاون الدولي تابعة لحزب الخضر، فغادر معها فلسطين إلى بيروت، ثم إلى برلين، حيث أنجبا ابنهما سليم في سنة ٢٠٠٧. وبقي حتى الأشهر الأخيرة من حياته، على الرغم من إصابته بمرض خطر اقتضت معالجته إجراء ثلاث عمليات جراحية، مصراً بحيوية عجيبة على مواصلة نشاطه السياسي، ومتابعة المستجدات الأدبية والفكرية والفنية.

## المصادر

- ١ تستند السيرة الذاتية لإيلان هاليفي إلى ما رواه مارك ألبير ليفين، أخو إيلان، في كلمة مؤثرة أرسلها إلى أصدقائه، وكذلك إلى مقالة نيكول لابيير الرائعة المنشورة في الموقع الإلكتروني الفرنسي "ميديابار" بتاريخ ١٣ تموز / يوليو ٢٠١٣، في الرابط الإلكتروني التالي:  
<http://blogs.mediapart.fr/blog/nicole-lapierre/130713/ilan-halevi-meteque-generique>
- ٢ Rue Denis Père et Fils.
- ٣ Alain Albert, «L'Horaire», *Ecrire*, no. 8 (1960), p. b3-b44.
- ٤ Alain Albert, *The Crossing* (New York: George Brasiller, 1964).
- ٥ Alain Albert, *La Traversée*, traduit de l'américain par Georges Levin (Paris: Editions du Seuil, 1965).
- ٦ Ilan Halévi, *Sous Israël, la Palestine* (Paris: Le Sycomore, 1978).
- ٧ Ilan Halevi, *Question juive: la tribu, la Loi, l'espace* (Paris: Editions de Minuit, 1981).
- ٨ *Revue d'études palestiniennes* (Automne 1981-Eté 2008).
- ٩ Ilan Halevi, *Face à la guerre, lettre de Ramallah* (Paris: Sindbad / Actes Sud, 2003).
- ١٠ Ilan Halevi, *Allers - retours* (Paris: Flammarion, 2005).

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

## القدس والإسلام

### دراسة في قداستها من المنظور الإسلامي

خليل عثمانة

١٤ دولاراً

١٩٦ صفحة